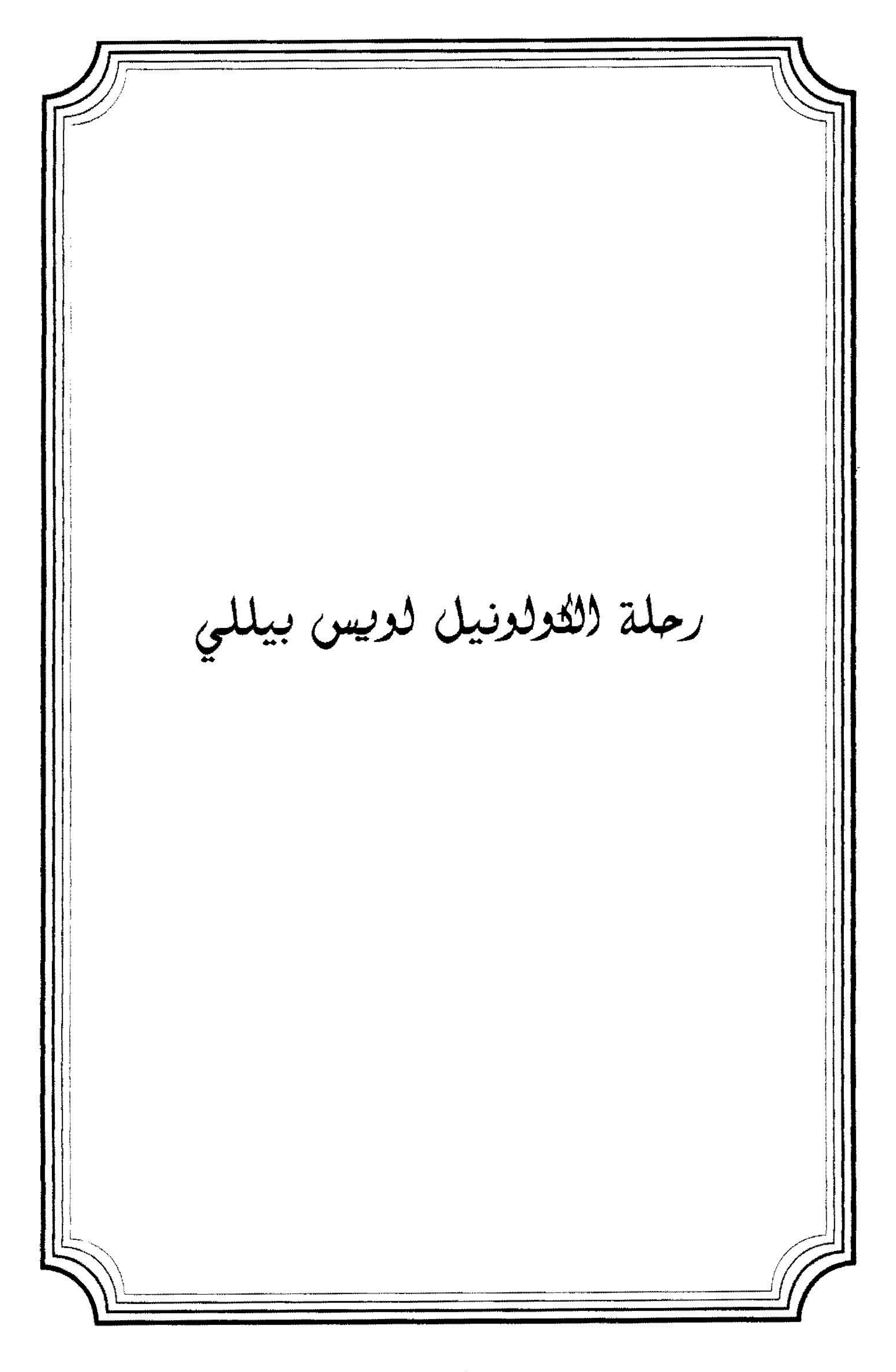


رحلة الكولونيل لويس بيللي

الليفتنان كولونيل لويس بيللي:

تقرير عن رحلة إلى العاصمة السعودية الرياض في العربية الوسطى

طبع بومبي ١٨٦٦ م

تلخيص:

عقدت الحكومة البريطانية معاهدات بحرية مع شيوخ الخليج شبه المستقلين. ولكنني أدركت أن هؤلاء الشيوخ كانوا كخيالات الظل بين يدي أمير نجد، لذلك كان الأفضل أن يتم لقاء وتفاهم معه مباشرة، ومما يزيد حاجتنا إلى مثل هذا اللقاء أن سفننا الحربية كانت هاجمت سواحله فأثارت الأفكار ضدنا.

ومهما يكن الأمر فإن جميع الأشخاص هنا متفقون على أن الأمير فيصل هو حاكم عادل وشديد وأنه نجح في تحقيق ما عجز عنه أسلافه، وهو تحدي الأعراف والتقاليد العشائرية ومحاولة إخضاعهم كالحضر للشرع، وتحويل أفكارهم إلى الزراعة والتجارة، بدلاً من الغزو.

لا يمكننا القول إن الناس يحبون الأمير فيصل، ولكنهم معجبون به ومقدرون لسياسته.

إن التفاهم مع الأمير فيصل سيكون له تأثير كبير على جميع مشايخ الخليج، ولذلك كتبت إليه رسالة أعرب له فيها عن رغبتي في إقامة صلات حسنة معه، وإنني أريد لهذه الغاية زيارته.

كان جوابه غامضاً، وأشار فيه إلى سلفي وسياسته العدائية.. وأعدت الكتابة إليه فلم أتلقَّ جواباً، ولكنني علمت من نجديين على صلة به أنه تحدث عني حديثاً حسناً وقال إنني لا تهمني إلا المصلحة العامة.

وهكذا قررت السفر إليه، وكان القوم هنا بين ناصح لي بعدم المغامرة وبين موافق.

ويتحدث بيللي عن رحلته الطويلة خلال الكويت ونجد ثم يقول ما خلاصته: تلقاني في ظاهر الرياض رجل موفد من جانب الأمير، وسلم عليّ سلاماً مختصراً، ثم أخذني إلى دار في بستان أعدت لغير المسلمين.

ثم جاءني محجوب، وزير الأمير، وأفهمني أن بقائي في هذه الدار خير لي، لأنني أدخن الخبيثة..

وقد سلمته هدايا ليقدمها باسمي إلى الأمير، ولما سألته عن موعد مقابلتي للأمير، قال لي أن أنتظر يومين بعد انقضاء شهر الصوم..

وأخيراً أبلغني الأمير أنه سيستقبلني في مسجده بالقصر.

واستقبلني في قاعة واطئة السقف، طويلة، ضيقة، يعتمد سقفها على أعمدة خشبية، وكان الأمير يجلس في صدر القاعة على سجادة جميلة، ويستند إلى آرائك من جلد، وكان أصغر أولاده يجلس إلى جانبه، ويقف قريباً منه وزيره محجوب، ولما دنوت من الأمير نهض من أجلي بصعوبة، وأخذ بيدي وطلب مني أن أجلس على السجادة قريباً منه.

كان أعمى تماماً ولكنه كان هادئاً، وقوراً، صبوراً.

وكان يبدو أنه تجاوز السبعين، وكان يرتدي ثياباً غنية وأنيقة، وعلى رأسه كوفية وعقال من الكشمير الأخضر، وكانت كلماته هادئة ومتزنة.

.. قدمت إليه مرافقي، وأعربت له عن سروري بالتعرف إليه شخصياً فأجابني بلطف، وقال إن الرياض بلد يبدو للغربي أن المجيء إليها أمير مثير للفضول، ولم يسمح قبل الآن لأي أجنبي بدخولها، ولكن كل شيء سيكون على ما يرام.

قلت له: إنني قمت بزيارات مماثلة لرؤساء في جزيرة العرب، ولم أحتفظ منها إلا بذكريات مرضية، وإنني أرجو أن تكون محادثاتنا معه مرضية أيضاً وتزيل من نفسه آثار الحوادث السابقة، وأن الحكومة البريطانية لا تريد للعشائر العربية إلا أن تعيش بسلام ورخاء في أراضيها وفي ظل أمرائها.

فقال الأمير إن علاقاته مع الدول الأجنبية قليلة، وإن كان له في كل مكان وكلاء يطلعونه على كل شيء.

وكان يتحدث عن نفسه بصيغة الجمع ويعتبر كل شبه جزيرة العرب، تقريباً، ملكاً له.

قال: «أرض العرب هذه من الكويت إلى القطيف فرأس الخيمة فعمان وما بينها قد أعطانا الله إياها» .

ثم قال: إن الترك كانوا أخذوا منه بعض هذه البلاد، ولكنه لا يخاف منهم .

ثم سألني: هل تريدون أن تساعدوني على محاربة الترك أو عشائر أخرى؟

فقلت له: إن سياسة بريطانيا في هذه البلاد محافظة، ونحن يسرنا أن ننظر إلى جيراننا كأصدقاء، وكتجار في أراضينا، ولكننا غير مستعدين للمساعدة في أي عمل عدواني .

قال الأمير: إنه سمع من باشا مصر شيئاً من ذلك، وإن الحكومة الإنجليزية تبدو من الناحية السياسية نظامية وصالحة، وهي أقل دسائس من فرنسا .

ثم قال: إنه يكره ديانتنا، ويدعو الله أن يهدينا إلى الطريقة القويمة، وأضاف: هناك تمييز بين المصلحة السياسية والأمور الدينية .

ثم تكلم عن مجيء سفينة فرنسية لمساعدة سلطان مسقط في حربه ضد السعوديين .

فقلت للإمام: إنني لا أعرف شيئاً عن تلك القضية وأظن أن الخبر غير صحيح . . فضحك، وتحدث عن سلطان مسقط باحتقار، قائلاً إنه ضعيف، والذين حوله ضعاف، ومسقط خاضعة لنا وقد أخذناها بقوة السلاح، والإمام السابق سيد سعيد كان يفهم القضايا، ووافق على تسوياتنا، ولكن سيد ثويني يختلف عنه ويجب أن يكره بالقوة .

ثم عاد الإمام إلى الحديث عن فرنسا وقال: إنه تلقى رسالة من سفينة فرنسية تعرض عليه المساعدة في البر والبحر متى احتاج إليها، فلم يجب . . ثم أعادت السفينة منذ سنتين الرسالة نفسها وطلبت منه أن يبلغ جوابه إلى قنصل فرنسا في دمشق، فأجاب شاكراً وأنه لا يحتاج إلى تلك المساعدة .

وأخيراً سألني الإمام إذا كانت لي قضية أحب أن ألقاه بها على انفراد، فأجبته أن غايتي من الزيارة هي أن أتعرف إلى زعيم يتحدث عنه الناس حديثاً حسناً، ويمكنني القول أيضاً إن غايتي مثل غايته، وهي أن يستقر السلام في بلدان الخليج الفارسي وتقوم بيننا علاقات طيبة، وأن التعرف الشخصي بين الرجال الشرفاء هو مصدر الثقة، ويمنع الأشخاص الآخرين من إحداث سوء تفاهم بينهم، وأنني لا

أشك في أن زيارتي الودية الحاضرة ستحسن علاقاتنا وتكون لها آثار على تقدم كل الشعوب التي تتحمل المسؤولية عن سعادتها.

كان الإمام مسروراً من هذا الكلام، وقال: إن هذه الزيارة هي لمجرد التعرف الشخصي، ويجب أن يكون بيننا اجتماع خاص.

وفي الصباح عدت لمقابلة الإمام ولم يكن معه سوى ترجمان، وكنت وصلت ولما ينتهي الإمام من ارتداء ملابسه.

بقيت فترة مع وزير الإمام، وكان هذا يتحدث بخفة.. ولما دخل الإمام صمت، ثم أخذ يردد معه الأدعية، وانشق الباب، وظهر الإمام تسنده جاريتان، ثم تلقاه منهما عبدان وأخذاه إلى مقعده.

كان سلامه هذه المرضة صميميًا جداً، حتى ليخيل لي أنه «علماني»، في أمور السياسة. تكلمنا عن أشياء مختلفة، وفي جملتها الوسائل التلغرافية، فقال: إنه يفهم نفع هذه الوسائل، ولكنه يخشى أن تحدث لنا بسببها متاعب مع العربان، وقد كان عباس باشا المصري يريد إقامة مواصلات بريدية مع نجد، ولكن مضايقات وأذى القبائل كانت من الكثرة بحيث أهمل هذا المشروع، مع أنه في أول الأمر عاقب العرب المعتدين.

ثم عاد يسألني: هل نريد أن نساعده على التغلب على أعدائه، وهل نميل إلى عقد حلف ضد الترك وغزو بلاد أبعد (وربما يعني بلاد الفرس)، فابتسمت وقلت: إننا سنكون سعداء إذا رأينا شعبه يتاجر في أراضينا، ولكننا لن نعتدي.

وتكلم الإمام عن أوضاع الجزيرة العربية الطبيعية والسياسية، وقال: إن بلادنا تحتاج إلى المطر، والمطر إذا نزل أمكن جعل البدو حضراً.

وأعطاني وزيره طلباً لشراء آلات ضخ للماء توضع في ضواحي القاهرة، أقوى من الآلات الموجودة الآن، فقلت للإمام: إنه يسرني أن أسهم في هذا العمل النافع وليسمح لي أن يكون هدية متواضعة مني.

ثم طلبت منه أن أزور اصطبله، فقال: إنه في الخرج وأستطيع أن أنتقي منه زوجين اثنين، فقلت له: إنني إنما أريد رؤية الخيول العربية لإعجابي بها، لا لأملكها، وسألته عن لون أحسن الخيول؟ فقال: إن المهم هو النسب، وليس اللون.

لم أذهب إلى الخرج، ولكن هدية الإمام وصلتني إلى الرياض. وأعود إلى حديث الإمام، فقد اختتمه بهذه الكلمات القوية: «لتكن الجزيرة العربية كيفما كانت، فهي بلادنا.

ولعلكم تتعجبون كيف نعيش هنا مع أننا منعزلون عن العالم؟

والحق أننا راضون. إننا نشعر أننا نملك كل شبر من أرضنا.

ونحن نعرف كيف نحكم عرباننا، ومن خطتنا أن نعاقب بشدة رؤساء العشائر حين يرتكب أفراد من عشائرهم جرائم أو يقتلون أفراداً أو جماعات.

وإذا زرتم السجن فستجدون هناك سبعين من رؤسائهم. نعم نحن قساة جداً، ولكننا عادلون»(١).

علاقة الإمام فيصل بفرنسا؟:

قالت صحيفة الخليج الفارسي:

سبق الكولونيل بيللي إلى الرياض الرحالة (و. ج. بالجريف) (Palgrave) الذي مر بعاصمة السعوديين أثناء مروره عبر الجزيرة في سنة ١٨٦٢ م، ولم تكن بعثة مستر بالجريف - رغم أنه من رعايا بريطانيا - باسم الحكومة البريطانية، وقد قيل إنه كان يمثل نابليون الثالث، الذي كان مهتماً اهتماماً خاصاً بمصر والشام، وربما كان قد وجه اهتمامه إلى نجد لعلاقتها بموضوع قناة السويس، الذي كان قد تم اقتراحه آنذاك بالفعل.

وقد اعترف الأمير فيصل في محادثاته مع الكولونيل بيللي في الرياض أنه تلقى مرتين عروضاً سخية من الحكومة الفرنسية بالمعونة، وفي الثانية منهما طلب بالجريف من الأمير أن يبلغ رده للقنصل الفرنسي في دمشق..

وأبلغه الأمير فعلاً شكره.. وأوضح له أنه ليس في حاجة إلى مساعدة..

---

(١) وكتب بيللي يصف مساحة الدولة السعودية في عهد فيصل فقال: إنها تسيطر على ساحل الخليج الفارسي الغربي وعلى ساحل عمان وتتلقى الإتاوات نقداً أو عيناً من رؤساء البحرين وأبو ظبي ودبي وأم القيوين وعجمان والشارقة ورأس الخيمة، كما أنها تملك مركزاً بارزاً في البريمي، ومسقط أيضاً تدفع الإتاوة.

وكان فيصل يقول دائماً: إن أرض جزيرة العرب من الكويت عبر القطيف ورأس الخيمة وعمان ورأس الحد وفيما وراءها هي التي منحنا إياها الله تعالى.

تعليق د. أبو علية على رحلة بيللي:

كتب الدكتور عبد الفتاح حسن أبو علية على رحلة بيللي تعليقاً جيداً، نقتطف منه الفقرات التالية:

«بيللي هو المقيم البريطاني في (بوشهر) في الخليج العربي، ورحلته جاءت بعد سنتين من رحلة بلغريف، ومن أغراضها إبعاد النفوذ الفرنسي سياسيًا والحصول على معلومات تؤكد أو تنفي المعلومات التاريخية والجغرافية التي نشرها بلغريف».

ويشير أبو علية إلى رسالة بعث بها الإمام فيصل إلى خديوي مصر إسماعيل وفيها يقول: «إن بيللي أراد أن نعطيه مركزاً في ساحل البحر: أما البحرين أو الدمام أو غيرهما فرفضنا مطلبه».

ـ الوثيقة العربية المحفوظة في المحفظة ١٩ بحر براً ـ تركي رقم ٢ دار الوثائق القومية بالقاهرة)[1] ـ

وتحدث عن التنافس الإنجليزي الفرنسي الذي اتخذ شكل تنافس اقتصادي سياسي بين الشركات التجارية الأوروبية في الشرق، متمثلاً في شركة الهند الشرقية الإنجليزية وشركة الهند الشرقية الفرنسية وشركة الهند الشرقية الهولندية.

وفي نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلاديين أصبحت حكومة فرنسا بحاجة ماسة وملحة إلى إيجاد قواعد فرنسية في منطقة الشرق لتكون بمثابة مراكز استطلاعية ضد الإنجليز في الهند.

وكانت فرنسا تريد أولاً السيطرة على الأقطار التي كانت تابعة للدولة العثمانية المتداعية في البحر المتوسط، ثم الوصول إلى البحار الداخلية لجزيرة العرب، ثم الوصول إلى الهند، أكبر المستعمرات الإنجليزية في الشرق.

وقد زاد التنافس بين الإنجليز والفرنسيين بسبب الروابط التي كانت قائمة بين مسقط وبين المستعمرتين الفرنسيتين في المحيط الهادي وهما: موريشيوس وبوربون.

---

(١) نشر هذا التعليق في مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ العدد السادس.